وعي المرأة بدورها الاجتماعي
وأثره في معالجة مشكلة الفقر

بقلم

الدكتور سيد الأمين السلطاني

مقدمة:

ليس من الغرابة وجود صعاليك في المجتمعات، ولكن الأغرب ألا يجدوا ما يقتاتون به مع وجود عدد كبير من الأغنياء والأثرياء وأهل البذخ والترف، ولا سيما في المجتمعات الإسلامية التي أوجب عليهم الإسلام إخراج الزكاة بصفة سنوية إلى مستحقيها، ناهيك أن تكون الأسرة الفقيرة التي لا عائل لها، بأي سبب من الأسباب كفقدها الزوج بسبب ترمل أو طلاق أو هجرة، فتكون الأسرة آحادية، وتصبح الأم هي المعيل الأساسي للأسرة بأكملها، أو لكون معيلها شيخا كبيراً عاجزاً عن العمل، أو أن المعيل مصاب بمرض مفتك، وأغرقته الديون، وكذلك حال العائلة الفقيرة عند وجود المعيل إلا أنه عاجز عن توفير متطلبات الحياة ومقوماتها الأساسية ابتداء من متطلبات الحياة الضرورية وذلك لتدني الدخل الشهري الثابت.

سوف نحاول من خلال هذا المقال تسليط الأضواء على أهمية تثقيف ووعي المرأة بدورها الاجتماعي في تفعيل مشاركتها الاجتماعية، وفي ذات الوقت يتطرق إلى أهمية هذا الوعي الاجتماعي للمرأة في لتساهم في القضاء أو حل إحدى أهم الصعوبات والعراقيل التي تواجه الأسر والمجتمعات في عالمنا الإسلامي؛ ألا وهي مشكلة الفقر الآخذة في الاتساع.

* ومن أجل تحقيق أهداف هذا الموضوع، فإن المقال سيتناول ثلاث مسائل هامة:

(*) مدير تحرير المجلة.

- أولها مسألة وعي المرأة بدورها الاجتماعي، وكيفية تفعيله من خلال مناقشة الإطار النظري للمشاركة الاجتماعية للمرأة في الإسلام.
- ثانيها التركيز علي الدور الاجتماعي للمرأة في نطاق التدبير الاقتصادي للأسرة.
- ثالثها أهمية الاقتصاد المنزلي الجماعي في دفع عجلة الاقتصاد المجتمعي إلى الحركية والتكامل.

وفي نهاية المقال نورد بعضا من التوصيات ذات الصلة بتشكيل الوعي الاجتماعي للمرأة، وكيفية تفعيله في حل مشكلة الفقر في العالم الإسلامي.

فالمرأة إذا ما قُدِّر لها أن توجد في أسرة فقيرة، أو لحق أسرتها المصاب – لا قدر الله – فدخلت في عداد الأسر الفقيرة، فإن المطلوب منها أن تعي الظرف القاسي الذي تعيش في كنفه، وأسرتها وأولادها، فدورها كبير وهام للغاية في التقليل من حدة الإحساس القاتل بالفقر، في نفسها ونفس زوجها، والأهم من ذلك كله أولادها الأبرياء الذين لا يعون معنى الفقر، ومعنى أن يكون الفقير والغني في حي ومجتمع واحد، والأعسر فهماً أن يوجد فقراء بين أفراد أسرة واحدة؛ بين إخوة أو أعمام، أو أخوال وخالات، فإن للأم هنا دورا مهما في توضيح هذه الصورة وتبسيطها للفهم، حتى لا يكبر الأولاد ناقمين على المجتمع، وقد قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فيما عنه أبو هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَنْ تَظْلِمَ أَوْ تُظْلَمَ "[1].

ثم يأتي الدور الثاني؛ وهو عملها الجاد على محاربة الفقر ومجابهته، فإذا كانت في أسرة لها دخل ثابت إلا أنه ضئيل أو بتعبير آخر لا يكفي لسد الاحتياجات والمتطلبات، فدورها هنا يكمن في التدبير المنزلي والترشيد الاقتصادي، بغرض التعامل الذكي بين الدخل القليل والمتطلبات الكثيرة.

وأما إذا كانت في أسرة لا عائل لها إلا هي، فإنها مطالبة في ظل الظروف الصعبة التي تعيشها أن تخرج للعمل أو تعمل في بيتها، بما يمكن أن يأتيها منه

---

[1] – رواه ابن ماجة، باب الدعاء، والنسائي في كتاب الاستعاذة.

بمصروف يومي أو شهري، كما هو معمول به في بعض الأسر في العالم، وسنأخذ لذلك بعض النماذج للعمل الصناعي البيتي، كما هو الحال في اليابان والصين وبعض الدول العربية مثل السعودية والأردن ومصر خصوصا.

ووضعية المرأة الفقيرة أعقد وأكثر حرجا من فقر الرجل المعيل لأسرة، وتثبت دراسات كثيرة أن أعلى نسبة للفقر هي الواقعة على فئة النساء، فإذا كان عدد فقراء العالم أجمع هو في حدود بليون نسمة يناضلون من أجل البقاء على قيد الحياة بأقل من ١ دولار يوميًا؛ فإن ثلثي هذا العدد هم نساء – كما جاء في التقرير السنوي للبنك الدولي لعام ٢٠٠٠م– على لسان السيد "مارك مالوش براون"[1].

المشاركة الاجتماعية للمرأة في الإسلام:

لقد كرم الإسلام المرأة تكريما لا نجد له أي نظير في الشرائع والديانات الأخرى؛ إذ أعطيت المرأة حقوقا لا تحصى ولا تعد، ولم ينته الأمر عند استرجاع كرامتها بل تعداه إلى إشراكها في مسؤوليات متعددة مثل الرجل تماما من أجل تحقيق عبادة الله تبارك وتعالى.

وأورد فيما يلي آيات من القرآن وأحاديث شريفة تؤكد التكامل الفطري بينهما يقول تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِيْنَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوْذُواْ فِيْ سَبِيْلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِنْدِ اللّهِ وَاللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [2]، وقوله عز وجل ﴿ وَالْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيْمُوْنَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَيُطِيْعُوْنَ اللّهَ وَرَسُوْلَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ [3]، ويقول سبحانه ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِيْنَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِيْنَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِيْنَ

---

[1]– مقتبس من برنامج الأمم المتحدة المنشور في عام ٢٠٠٠م.

[2]– سورة آل عمران آية ١٩٥.

[3]– سورة التوبة آية ٧١.

وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِيْنَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِيْنَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّآئِمِيْنَ وَالصَّآئِمَاتِ وَالْحَافِظِيْنَ فُرُوْجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِيْنَ اللَّهَ كَثِيْراً وَّالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَّغْفِرَةً وَّأَجْراً عَظِيْماً﴾[1]، **من حيث إنهما يشتركان ويتكاملان في القيام بالمسؤوليات والواجبات التي فرضها الله عليهما في هذه الدنيا.**

والتكامل والاشتراك في أداء الواجبات التي فرضها الشرع عليهما لم يجعل الشرع يهمل الفصل بين الاثنين فيما يتعلق بوظائفهما الفطرية والكونية، باعتبار ما ركب الله تعالى في كل منهما من فطرة تتضمن إمكانات واستعدادات بدنية وعقلية ونفسية تميز أحدهما على الآخر.

ولهذا كان في شرع الله أحكام مشتركة بينهما تتعلق بالواجبات التي يؤديانها ويشتركان فيها، كما أن في الشرع أحكاما خاصة بكل واحد منهما مما ينسجم مع فطرته ويحافظ عليها.

وليس هناك فرق بين المسؤولية الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والعلمية والفكرية وغيرها إلا استثناءات حددها الشرع بدقة.

وهنا أركز على الدور الاجتماعي والمهني لمشاركة المرأة المسلمة، ولنا في هذا الموضوع أسوة حسنة في سيرة الرسول ﷺ، عندما كانت الصحابيات وقبلهن أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن يشاركن في الحياة العامة للمجتمع، بالخروج للتعلم والتعليم، ولا يخفى على أحد سؤالهن الرسول ﷺ أن يجعل لهن يوما خاصا بهن وحدهن فقط، كما تدل الرواية التي أوردها الإمام مسلم في صحيحه بسنده :

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ :اجعل لنا يوما، فوعظهن، وقال" أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد، كانوا لها حجابا من النار" [2].

ثم خروجهن للعمل في الزراعة والحرث والرعي والتجارة، ناهيك عن الخروج في قوافل المجاهدين، سواء كمجاهدات أو ممرضات، أو مسعفات للمرضى والجرحى،

---

[1]- سورة الأحزاب آية ٣٥.

[2]- صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب.

وغيرها من الأعمال التي امتهنتها الصحابيات رضوان الله عليهن، التي برهنت بها الصحابيات أنه بإمكان المرأة المسلمة أن تكون عضوا فاعلا في الحياة الاجتماعية للأمة المسلمة إذا أرادت هي ذلك، "وذلك استجابة لحاجات الحياة الجادة النشطة"، وتوفر لها الجو الإسلامي بضوابطه المشروعة التي لا تخدش الحياء، ولا تدعو للاختلاط، وقبل ذلك اختيار الوظيفة المناسبة لها، "وما يليق بها من الأعمال، التي لا تتعارض مع واجبها في البيت، فيمكن أن تعمل بأجر لبعض المؤسسات، وهي في البيت، أو في خدمة مجتمعها وبنات جنسها، والإسهام في مقاومة الفقر والجهل والمرض والرذيلة".

الدور الحيوي للمرأة داخل أسرتها لمجابهة الفقر:

لا يمكن بحال من الأحوال تغييب دور المرأة الحيوي في هذه الحياة، ألا وهو تربية أولادها، فهي كامرأة مسلمة يجب أن تعي وظيفتها الوجودية التي وجدت لأجلها في الحياة الدنيا وهي الاستخلاف، والمطلوب منها لتحقيق الاستخلاف أن تنجب لنا خلائف آخرين، جيل المستقبل، وهم أبناؤها.

فالمرأة أو بالأحرى الأم وهي تؤدي دورها الحيوي في الحياة "الأمومة" عليها أن تستغل هذه الأمومة، ومشاعر الأمومة، وتوظفها في إعداد جيل المستقبل، لتحقيق الاستخلاف في الأرض، بالرعاية الطبيعية الحياتية (المأكل والملبس والنظافة)، ثم بالتربية والتنشئة الاجتماعية والدينية، فتكون الأم هي القيّم على نشر مبادئ وقيم وتعاليم الإسلام بين أولادها، "والأم المسلمة يجب أن تحرص على تقوية دعائم أسرتها، وتربية أبنائها على الفهم الصحيح للأمور، والعزيمة الصادقة؛ لتغيير واقع الأمة المسلمة إلى الأفضل"، فمن خلال التدريب اليومي على الأخلاق الإسلامية، والتنشئة الموجَّهة المستمرة، لا يعترض الأسرة أي عارض، لا الفقر ولا الحاجة.

إن تأدية الأم مهامها اليومية تعتبر نموذجا حيا لطفلها، نموذج المسلم العامل، المسلم الفاعل، الذي يجابه صعوبات الحياة من أجل عبادة الله عز وجل، فالكل يؤدي

دوره بصبر وصدق وقوة عزيمة على التغيير؛ سواء تغيير جو البيت من بيت وسخ غير مرتب إلى بيت نظيف مرتب تعبق منه رائحة النظام والهدوء والصحة أو تغيير أنماط السلوك أو التصورات والأفكار.

فليس المال وحده هو الذي يجلب السعادة، فكم من غني شقي، وغني تعيس في الدنيا، لأنه بدون أولاد، أو لأنه لا يعرف كيف يسيِّر حياته على الصورة المثلى.

فالبيت النظيف البسيط الهادئ أفضل من البيت الذي تملأه الصور الحائطية والزرابي والأرائك وغيرها. وإن قناعة الطفل بتوفر الضروري والضروري لا غير يجعله هانئا غير حانق على ما في أيد غيره، إذا لم يكن متوفرا لديه.

إن الطفل الذي يولد وهو صفحة بيضاء، للأم الدور المهم والأساسي في ملئها، والكتابة عليها ما تريده من طفلها، وهي في ذلك تنطلق من وعيها لدورها كإنسان مسلم مستخلف في هذه الأرض؛ على أطفالها، وعلى بيتها، وعلى مجتمعها، وعلى أمور دينها، إن كل ما تخطه الأم في ذهن ابنها ليدل عليها أصالة، لأنه يدل على مدى وعيها، ومدى علمها، ومدى ثقافتها، ومدى استيعابها لدورها الاستخلافي.

وقد أحسن الشاعر المنفلوطي في قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها – أعددت شعبا طيب الأعراق

فالطفل الذي يولد في أسرة فقيرة، أمه هي المسؤولة عن غرس مبادئ القناعة والبركة في نفسه، وغرس الخلال الحميدة، التي يعتبرها الصبي كنزا لا يفنى، بينما يفنى المال في لحظات معدودة، مصداقا لقوله ﷺ: " ليس الغنى كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس"[1].

وإن الأم الواعية هي التي لا تنتظر حتى تُواجه البدايات المضلة والمنحرفة لأولادها على مشارف سن المراهقة، أين يكون الطفل، والذي أصبح الآن شابا، قد خرج عن طوعها، وأصبحت توعيته وإرجاعه إلى جادة الصواب ليس أمرا سهلا،

---

[1]– صحيح البخاري كتاب الرقاق، وصحيح مسلم كتاب الزكاة، والترمذي وابن ماجه كتاب الزهد، ومسند الإمام أحمد حنبل.

فإن المعالم التربوية، وفضائل الأعمال التي تصقلها في أبنائها وهم رضع أوثق وأعمق، فالشاب الذي نشأ في أسرة فقيرة، تكبر أحلامه وهو يرى أقرانه يجوبون ويتنزهون في سيارات فارهة، ويبددون الأموال فيما ووقتما وكيفما شاءوا، لذا كثيرا ما يلجأ أبناء الأسر الفقيرة للمخدرات هربا من الحياة الدنيا إلى أحلام اليقظة.

إن الأبناء أمانة في أعناق الآباء، فكيف نحافظ على هذه الأمانة لنحقق الاستخلاف في الأرض؟.

فهل ندع هؤلاء الأبناء، وفي هذا العصر بالذات (عصر العولمة) أين الانفتاح على العالم بأسره، على ثقافاته، وتقاليده، وعاداته، الحسن منها والقبيح، الانفتاح على وسائل الترفيه والتسلية، في يسر الحصول عليها، وعلى مواقعها، في سهولة تلبية رغبات وشهوات النفس بما لذ وطاب، من دون خوف أو حرج إلا الخوف من الله تبارك وتعالى، إذا وجد الأبناء هذا الخوف، وهذه الخشية، منقوشة ومصقولة في قلوبهم قبل عقولهم التي تميز النافع من الضار.

والتحكم في الأبناء وهم صغار أيسر بكثير من التحكم فيهم وهم في سن المراهقة، وتعليمهم وتربيتهم وهم صغار أيسر من تعليمهم وهم كبار، وصدق من قال: التعليم في الصغر كالنقش على الحجر.

ومن جهة أخرى، فعندما تضطلع المرأة بهذا الدور القيمي على بيتها، فإنها بذلك تحقق ذاتها، وإنها بذلك تتخلص من عبوديتها للنماذج المشوهة المستوردة عن المرأة والأم، وبذلك أيضاً تستطيع أن تسد الثغرة التي ينبغي أن ترابط عليها، فلا يؤتى الإسلام من قبلها.

إن وعي المرأة بذاتها وبدورها كقيِّم على الأسرة وحارس للقيم والمبادئ، يعني في ميزان القيم أنها تعي تماما دورها وحقيقتها، وأنها حقيقة تعرف وجودها ووظيفتها، وأنها مستخلفة الله في الأرض، عابدة لله وحده دون سواه، وبالتالي تتميز عمن يخالف سلوكها وأخلاقها واعتقادها، وتحاول التأثير فيه لا التأثر به.

إن المرأة المسلمة المثقفة الواعية بدورها الرسالي كقيِّم على البيت، تدرك تماما أن ثغر البيت لا يمكن أن يسده الرجل، بل إنها هي المسؤولة الأولى عنه؛ أين ستقوم برعاية أبنائها وزوجها، وبالتالي تساهم في بناء مجتمعها والحفاظ على استقراره وأمنه، فهي بالتزامها بنداء الفطرة تكون قد أمنَّت المرابطة على ثغر من الثغور الحساسة، ألا وهو القيام بشؤون البيت وتربية الأبناء، التربية التي تؤمِّن جانبهم من تأثير الأفكار الفاسدة التي تبثها وسائل الإعلام المختلفة.

ولا يعني ذلك أن مسؤولية المرأة المسلمة تنتهي عند قيامها على بيتها، بل لها دور اجتماعي مهم، غير أنه لا يلغي دورها الأساس والجوهري في التنشئة الأسرية.

الدور المهني للمرأة في الترشيد الاقتصادي:

لا يقتصر دور المرأة على بيتها كأم فقط كما قلنا، وإن كان هو الدور الحيوي لها؛ إنما دورها يتسع ويزداد كل حين وفي مجالات أخرى؛ لأن الأسر الفقيرة عمادها في تدبير الزوجة والأم، فهي:

أولاً: المتصرفة في المال القليل الذي تتحصل عليه، وهذه العملية هي ما يسمى بـــ"الترشيد والتدبير الاقتصادي".

ثانياً: التي تخرج للبحث عن العمل الذي سيساعدها "على تحقيق أمرين:

أولهما: توفير الحياة الكريمة لها ولأسرتها عند فقد العائل أو عجزه أو فقره.

وثانيهما: توفير مزيد من الفضل والمكانة الرفيعة لها إذا تصدقت من كسبها وبذلت في سبيل الله".

وهذه العملية تقوم على مجموعة من الأسس المتينة هي:

القناعة:

قال العرب قديما "القناعة كنز لا يفنى"، وهو مبدأ غاية في الأهمية، ساقه الناس عبر السنين، عندما رأوا أن الشخص كلما ازداد شأنه وارتفع قدره لا ينظر

خلقه أبدا، وما يلبث يريد المزيد المزيد، ولعلاج هذا المرض النفسي، وجد الناس أن الحل الأمثل هو القناعة بما تيسر ودام، خير من التمسك بما لا يدوم، أو بما لا طائل من ورائه.

وقد صدق المصطفى ﷺ عندما قال: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب"[1].

وليس معنى هذا أن الإنسان يستسلم ويرضخ للحالة التي وجد عليها، وإنما القناعة تعني رضا الإنسان بنفسه وبقدراته وإمكاناته، فقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: " قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه" [2].

فالمطلوب من الفقير ألا يبقى مكتوفة الأيد، قائلا إنه راضٍ بقضاء الله وقدره في فقره، بل عليه أن يعمل جاهدا للخروج من بوتقة الفقر المدقع إلى حد الكفاية، وهذا مطلب إلهي قبل أن يكون مطلب الشخص الفقير نفسه، مع الوضع في الحسبان أن الأرزاق بيد الله، وهو ما تبين في الحديث السابق، إذ فسر العلماء الكفاف بالذي لا يزيد على قدر الحاجة.

وبين القناعة والسياسة الرشيدة للاستهلاك علاقة وثيقة، تتمثل في عدم الاغترار بما تبثه الشركات الإعلانية، ودور التجارة ومراكزها، من صور إشهارية، لما يحتاجه، ولا يحتاجه المستهلك.

فالقناعة تتمثل في طلب الضروري والاستغناء عن الكماليات، بالتحديد الواضح لضروريات الحياة الأسرية لتوفيرها قدر الإمكان، مع الموازنة بين الضروريات نفسها.

البركة:

تمثل الركن الثاني في المبادئ الإسلامية التي يعتقدها الإنسان المسلم، ويعمل بها واقعا؛ "لأنها غيب يرسله الله بعلمه، فيعطي به عباده المستحقين صك أمان ضد الفقر".

---

[1]- رواه البخاري كتاب الرقاق، ومسلم كتاب الزكاة، والترمذي في كتاب الزهد، ومسند ابن حنبل، والدرامي كتاب الرقاق.

[2]– صحيح مسلم كتاب الزكاة، والترمذي كتاب الزهد، ومسند الإمام أحمد بن حنبل.

فالمُسلَّم به عند المسلم، أن ليس كل ما يتمناه المرء يطلبه، وإنما يسير وفق نظرية "الاقتصاد" التي جاءت في القرآن الكريم، في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَّمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيْرُ ﴾[1]

وقوله سبحانه وتعالى﴿وَاقْصِدْ فِيْ مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ﴾ [2].

وبين القناعة والبركة ارتباط وثيق في أن يقنع المسلم بما عنده ويسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك له فيه، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وهذه قاعدة جليلة عظيمة، جاء بها قول المصطفى ﷺ: "طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية"[3].

فالمسلم لا يجنح نحو إشباع رغباته كماً وكيفاً، إنما يقتصد بقدر الحياة الرغيدة، التي تأخذ بيده نحو الحياة الأزلية، في جنة الخلد إن شاء الله تعالى، قال تعالى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ﴾ [4].

وجاء في تفسير الآية: قول الإمام مالك: "في رأيي معنى "ولا تنس نصيبك من الدنيا" تعيش وتأكل وتشرب غير مضيق عليك".

فقه الاستهلاك وترشيده:

إن المتحكم اليوم في طريقة استهلاكنا هو التلفزيون بإعلاناته المغرية التي تظهر بين الحين والآخر، فإذا ما كانت المرأة تشاهد برنامجها المفضل فإنه ينقطع للحظات بإغراءات الإعلان التلفزيوني على الأشياء الخاصة بها، والأمر نفسه مع

---

[1]- سورة فاطر آية ٣٢.

[2]- سورة لقمان آية ١٩.

[3]- رواه مسلم كتاب الأشربة، والترمذي وابن ماجه كتاب الأطعمة.

[4]- سورة القصص آية ٧٧.

الطفل، فإن فيلم الكرتون سينقطع لتدخل عليه إعلانات تهمه كطفل، لتأخذ بلبابه، فيسارع للأم طالباً شراء هذا وذاك.

وهو ما يحدث عند الخروج للتسوق، إذ تسارع المرأة إلى شراء أمور غير واردة في ورقتها التي كتبتها بغرض التسوق، ويصرخ الطفل ملء فيه طالباً هذا لأنه رآه في التلفزيون أو لأن جارهم أو صديقه في المدرسة اشتراه.

فالإعلام وفنون الإعلان الذي يصور مقتنيات السوق على أنها هي لذة الحياة التي تتيح للإنسان التمتع بالحياة بأرقى وسائل العيش والترفيه، يجعل الإنسان يصاب بظاهرة "حمى الاستهلاك" أو "النهم الاستهلاكي" ولا سيما في غياب البعد الأخلاقي الذي يميز بين أولويات الاحتياج، وسفاسف الأمور التي تأتي على الأخضر واليابس من الدخل الشهري.

وليس الحل هنا أن نتقشف – وإن كان ذلك مطلوباً أحياناً- ولكن علينا اتباع سياسة "ترشيد الاستهلاك"، فالمسلم لا يعيش حياته الدنيا بغرض الترفيه عن نفسه بكل الوسائل المتاحة، لا سيما في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعيشها أكثر الأسر المسلمة في البلاد النامية والفقيرة؛ وإنما المستهلك الرشيد أو الحكيم هو الذي ينفق بحسب احتياجاته الضرورية، تاركاً حيزاً لطارئ المرض وغيره.

فقه الإنفاق:

تتحقق سياسة ترشيد الاستهلاك في معرفة الإنسان لفقه الإنفاق وآلياته، فليس كل سلعة يجب أن تُشترى، وليس كل مال يجب أن ينفق، وليس المال الكثير هو أمارة الغنى، ولا قلته هي أمارة الفقر، "فالاعتدال في إنفاق المال من السجايا النبيلة التي أمر بها الإسلام".

وأول آلية للإنفاق هي معرفة أوجهه ومداركه؛ فالإنفاق في الخير والحلال والطيبات أول أبوابه، بدون إسراف في شراء الكماليات، أو التوسع بغرض التباهي، فكم من بيت فقير يخرج من بابه ما إن تراه لتحسبه أخطأ طريقه لذاك الباب، لأن

مظهره يوحي بالبذخ، وهذه من سلوكيات كثير من أبناء الفقراء الذين يحسون بعقدة النقص تجاه زملائهم في المدرسة أو العمل.

أو تراهم يتعاطون الدخان، وهو إسراف بحد ذاته، وعند سؤالهم عن ذلك يقولون إنه بغرض نسيان وتناسي الهم والفقر الذي هم فيه!

ويمكننا تقسيم هذه الأوجه إلى ثلاث مراتب، هي مراتب المصالح؛ ضروريات، وحاجيات، وتحسينيات.

فمن أوجه الإنفاق الضروري: الإنفاق على إقامة شعائر الدين، والفرائض الإسلامية.

ومثلها في مجال حفظ النفس: بالحفاظ عليها بالمأكل والمشرب النقي الصافي والمسكن والذهاب للطبيب والعلاج، والمواصلات.

ومنها كذلك إرسال الأولاد للمدارس للتعلم فهذا مطلب ضروري في الحياة، وإنا لنجد كثيرا من الأسر الفقيرة تستغني عن ذلك لترسل أبناءها للرعي والزراعة أو التسول ومدّ اليد على الطرقات!! ففي تصورها أن التعليم من الأمور التحسينية، وهو اعتقاد لابد من تغييره في ظل مجانية التعليم خاصة المراحل الأولى منه.

وأما مثال الحاجيات فالملبس الوثير، والمسكن المريح، والأكل الغالي، ووسيلة النقل الفارهة، وتعليم الأولاد في المدارس الخاصة، والذهاب إلى أشهر الأطباء، وغيرها كثير، وهو مما يمكن أن يستغني عنه الناس في حياتهم المقتصدة الهنيئة.

ومن التحسينيات أن يتمتع الإنسان بطيبات ونعم الله إذا قدر على اقتنائها بعد أن يكتفي أولاده وأسرته بالملبس والمأكل والمسكن، فهل يعقل أن يقتني المحتاج سيارة وأولاده لا يجدون ما يسد رمقهم، والمصيبة أن ينفق بعض الأشخاص الأموال في الدخان والمسكرات في الوقت الذي يعيش أولادهم جوعاً وعرياً!!!.

تؤدي المرأة دورها الاجتماعي بعيداً عن البذخ والتكلف، ستحس أنها عنصر فاعل، حقيقة وواقعاً، فهي لم تؤد هذا الدور مثلاً قصراً أو إلزاماً أو للضرورة، وبذلك ستقدم نموذجاً حياً لتفعيل دور المسلمة.

ثم إن ما ينتظره المجتمع من المرأة هو ألا تتخلى عن دورها في المشاركة الفعالة والإيجابية مع أخيها الرجل في أدوار الحياة المختلفة داخل المجتمع، وذلك من دون إلغاء للفروق الخَلقية والوظائف الفطرية المنوطة بكل منهما، ولا يفهم من هذا الكلام أنه دعوة لإلغاء أنوثة المرأة بمعنى ترجيلها، ولا ترهيل الرجل أو تأنيثه على مذهب دعاة التحرر والتعري والتبدل.

وعلى المرأة من جهة أخرى أن تتخذ خطوات إيجابية شجاعة، من أجل مجابهة الفقر الذي يضرب بها وبأسرتها، فإن عملها بجد واجتهاد في سبيل التخفيف من حدته أو حتى الوصول إلى اجتثاثه أمر مطلوب من الرجل والمرأة على حد سواء، وعلى المرأة المساهمة بذلك بقدراتها وجهودها الميسرة لها، وهو ما يمكن تسميته بمبدأ "المبادرة".

فإن كثيراً من المجتمعات تشهد للمرأة بالعمل الحثيث والصبور والمتكامل، لما لها من صفات الصبر والتفاني في العمل، حباً فيه وفي أسرتها ابتداء، فهي تعمل لأجل إعالة أفراد أسرتها، الأمر الذي يخول لها القيام بدورها الكامل في المجتمع، وبحسب متطلبات العصر، لأنها أساس أي بناء للمجتمع، ذلك أن نجاح المرأة في هذا يفعِّل دورها في المساهمة في ازدهار المجتمع والأمة، أما إن بقيت سلبية اجتماعياً فإنها ستكرس التخلف والفرقة.

وقد أظهرت الدراسات أن الفقراء لديهم القدرة على الارتقاء بمستواهم المعيشي، ولكن لعدم تمكنهم من الحصول على الموارد المالية اللازمة للاستثمار؛ فإنهم لا يستطيعون إيجاد فرص للعمل؛ "ومن ثم كان الحل الإسلامي لمشكلة الفقر هو ضمان حد الكفاية لكل فرد، يوفره لنفسه بعمله وجهده، فإن لم يستطع ذلك لسبب خارج عن إرادته كمرض أو عجز أو بطالة... الخ، تكفلت له بذلك الدولة من مال الزكاة".

وهذا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يقول: " والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو

منعه"[1]. فيدلنا الحديث النبوي على أهمية البحث عن عمل أي عمل حتى ولو كان تصليح مجاري النفايات، أفضل له ملايين المرات من مدّ اليد للتسول والاسترزاق من الناس.

وهنا تظهر أهمية "المشروعات الصغيرة" التي يحاول أصحابها من خلالها استئصال جذور الفقر بصورة مستديمة متواصلة، لا لسد الحاجات الآنية بتوفير الغذاء اليومي فقط، وهو مطلب مهم يستحقون التشجيع عليه، خصوصاً من أصحاب القرار في بلادهم، والأمر يصبح أعظم، إذا كانت صاحبة المشروع امرأة تعيل أسرة كاملة.

فالمطلوب من الحكومات "تبنّي برامج تدريب تتوافق واحتياجات سوق العمل لتدريب النساء على مجالات عمل جديدة ونافعة".

ومنه اشتهرت الكثير من المعامل وورشات العمل الصغيرة وكما يسمى بعضها بـــ "المشروعات الصغيرة"، والتي تبدأ عادة من فكرة بسيطة لأي فن أو عمل تتقنه المرأة والأسرة عموما لينتهي بتوزيعه وبيعه، والتي تعد أكثرها بيتية، وهي إما تتعامل بصفة مباشرة مع المصانع أو تتعامل مع المدارس والفنادق، أو أي مسوق آخر بديل، حسب المنتوج الذي تعده المدرسة في بيتها. سواء كانت الخياطة والحياكة، أو طبخ أطباق الأكل والحلويات، أو أي فن من فنون الصناعة اليدوية. ومنه تكون المرأة عاملاً فعالاً يدر مدخولا للأسرة المحتاجة.

وفي إطلالة على أنواع بعض ورشات العمل البيتية، أو كما يسميها الاقتصاديون " بالمشروعات الصغيرة"، أورد فيما يلي بعضا منها:

<u>الخياطة:</u>

الحقيقة أن مهنة الخياطة والتفنن فيها عمل فنّي راق لا يتقنه إلا حاذق ماهر؛ اللاتي يتقن هذه الهواية حباهن الله بنعمة يحسدن عليها، لأنها تدر دخلا وفيرا، إذا ما

[1] – رواه البخاري، في كتاب الزكاة.

امتهنت المرأة فن الخياطة، ومثله فن التطريز؛ لأن اللباس أمر ضروري في حياة الإنسان؛ فالخيَّاطة امرأة تقدم الخير للناس في إبداع الملابس البهية، سواء للاستعمال اليومي أو للمناسبات أو للأزياء الرسمية للمصانع والمدارس ورياض الأطفال وبعض المحلات التجارية، حيث أن المرأة تتعاقد مع أي جهة من هذه الجهات لتخيط لهم زيهم المطلوب أثناء أداء العمل أو الدراسة، وعادة ما يكون هذا التعاقد لمرتين في السنة، وهو مما يجلب دخلا للأسرة، دخلا قارًا لموسمين متفرقين، ناهيك عن الخياطة للأفراد.

الطبخ:

وهو الأمر نفسه مع سابقه أو أفضل منه، حيث يعد الطبخ فنا تتقنه أغلب النساء، وهو مما يحتاج إليه الإنسان يوميا؛ فالمرأة تستطيع مساعدة أهلها وذويها في زيادة الدخل اليومي للأسرة من خلال تعاقدها مع مطاعم عامة أو داخل المؤسسات التعليمية، إضافة إلى الفنادق ومحلات الحلويات، وفي المجتمع الماليزي مثلا لا تحتاج المرأة إلا إلى أن تشتري بعض الأغراض البسيطة غير المكلفة لتفتح أمام بيتها كشكا صغيرا تبيع فيه الأكل في كل وقت ابتداءا من بعد صلاة الفجر إلى منتصف الليل، فتوفر على نفسها مشقة البحث عن مسوق، ومشقة الابتعاد عن البيت وأسرتها، مما يكفل لها عملا غير مرهق.

الأعمال اليدوية (الفخارية، والنسيجية):

تعتبر الأعمال اليدوية التي تمارسها النساء عادة، خصوصاً في القرى والأرياف من الأعمال المميزة التي تتميز بالجودة والإتقان، وإن كانت تأخذ وقتا في إعدادها، ولكنها في الوقت نفسه تكون قابلة للتسويق والتوزيع بشكل كبير في الأماكن السياحية، وحتى على قارعة الطرقات فالباعة يستوقفون سيارات السياح ومرتادي الأماكن السياحية.

زراعة بعض المنتوجات الزراعية البسيطة في حديقة البيت/ الزراعة على سطح البيت:

بدأ مؤخرا في جمهورية مصر العربية الحديث عن إمكانية الاستفادة من أسطح المنازل والبيوت في الزراعة، وهو مما سيسهل الحصول على خضراوات نقية خالية من الهرمونات، ومنه أيضا توفير عمل لربات البيوت.

فهذا العمل لا يحتاج إلا إلى جهد بسيط ومال قليل – كما ذكر ذلك صاحب فكرة هذا المشروع – ورعايتها سهلة وبسيطة، كما أن إنتاجها عادة ما يكون مبكرا على الطبيعي.

وهذه المشروعات إما أن تساعد الأسرة نفسها في الحصول على مبتغاها الغذائي أو يمكن لها التعاقد مع وزارعة الزراعة كما حدث في مصر، حيث "تم التعاقد على تنفيذ مشروعين، الأول مع منظمة الأغذية والزراعة "الفاو" لتدريب الفتيات على الزراعة بدون مبيدات فوق أسطح المنازل، والثاني مع هيئة المعونة الكندية لتدريب ألف فتاة أخرى بمحافظة الفيوم، وذلك بهدف توفير فرصة عمل مناسبة يمكن لربة البيت أن ترفع بها دخل أسرتها دون الخروج من المنزل".

تربية النحل:

يسهل هذا المشروع في المناطق المفتوحة، حيث يمكن للنحل أن يتنقل بحثا عن غذائه اليومي، وبالتالي فإن اعتماد هذا المشروع يتم بطريقين اثنين؛ إما أن يتوفر لدى الأسرة المكان المناسب لتعريش النحل، ووضع بيوته الخشبية، وإما أن تستأجر لهذا الغرض عند صاحب أرض أو مزرعة في مكان قريب من الحقول التي يرتادها النحل عادة.

وهذا المشروع لا يكلف الشيء الكثير، كما أنه لا يحتاج إلا جهد بسيط، ومدخوله يكون مرة في السنة، ولكن عسل النحل عادة ما يكون سعره مرتفعا في الوقت الذي لا يبخل الناس عن شرائه، لما له من أهمية وردت في شأنها آيات قرآنية تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مثل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَّخْرُجُ مِنْ بُطُوْنِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيْهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ ﴾ [1].

[1]- سورة النحل آية ٦٩ .

تربية الأرانب:

لم تعد تربية الأرانب مجرد هواية لبعض المزارعين في السابق، بل أصبحت تعتبر مشروعا اقتصاديا مفيدا، يدر الربح الكبير؛ فالأرانب سريعة التوالد وأولادها كثر!! والمختصون يرون أن تربيتها سهلة، إلا أنها تتطلب بذل جهود مضنية لتوفير النظافة بشكل يومي.

تربية الأسماك:

ظهرت هذه الفكرة عندما تقدم أحد طلاب كلية الزراعة بجامعة عين شمس بالقاهرة باستغلال أسطح مباني الكلية لإنشاء أحواض لتربية الأسماك، ثم تلتها تجارب أخرى، مثل التجربة التي قام بتنفيذها أحد الفنادق بعد أن وجدت إدارة الفندق في هذا المشروع وسيلة تمكنها من الحصول على احتياجاتها من الأسماك الطازجة، فما بالك بالأسرة التي تحتاج للغذاء اليومي، ولا سيما بعد أن أثبتت التجارب صلاحية وفعالية نجاح هذا المشروع عندما يقترن مع مشروع زراعة الخضراوات فوق الأسطح حيث تتم عملية الاستفادة الثنائية والعكسية بين الخضراوات والأسماك.

التعاونيات الاستثمارية (الاقتصاد المنزلي الجماعي):

إن الفكر الاقتصادي التعاوني فكر أصيل في الفقه الإسلامي، والحل التعاوني قادر على القضاء على مشكلة رأس المال الذي تعاني منه المشروعات الصغيرة.

فإذا ما تكاتفت أيدي الأسرة الواحدة أو مجموعة من الأسر في مشروع عمل واحد مع إحدى المؤسسات أو المصانع كما هو متبع في كل من الصين واليابان وماليزيا مؤخرا، فإن النتيجة ستكون مجدية وفعالة، وتأخذ وقتا قصيرا؛ إذ أثبتت التجارب أن أفراد الأسرة أيدي عاملة ماهرة وهي تؤدي عملها داخل البيت من دون الحاجة للذهاب للمصنع، إذ سينحصر دور المصانع في التمويل والتسويق والتوزيع، ويبقى للأسرة دخل قار.

أو اللجوء إلى انخراط الأسر في المشروعات الصغيرة التي تدخل في نظام "التصنيع العنقودي" كما تسمى في ماليزيا، أو "الصناعات المساندة" كما تعرف في

اليابان، حيث يتمثل دور الدولة بعد ذلك في الترويج والتسويق لهذه المنتجات، إضافة إلى تبني مجموعة من البرامج المساعدة على تشجيع عمل هذه المشروعات، مثل برامج تدريب العمال، والإعفاء الضريبي، ثم تزويدها بالقروض الميسرة، وهي إجراءات كفيلة بتشجيع وتحفيز العمال البسطاء على العمل والدخول في معترك برامج التنمية الاقتصادية للدولة.

وقد نقلت مجلة" الأسرة" السعودية دراسة علمية مفادها أن ٤٦ مليون من أصحاب الأعمال المنزلية في أمريكا- معظمهم من النساء- يعملون في منازلهم لإيجاد موازنة أفضل بين العمل والأسرة، ويكسبون دخلا أكثر من دخل موظفي المكاتب بنسبة ٢٨%.

وممن أولى أهمية لهذا الأمر في الدول الإسلامية - حسب علمي- مجلس الوزراء السعودي كما جاء في قراراته الصادرة بتاريخ ١٤٢٥/٤/١٢هـ بشأن زيادة فرص عمل المرأة في القطاع الأهلي، ما سماه "العمل عن بعد"، وبرنامج"الأسر المنتجة"؛ ما نصه: "على وزارة العمل بالاشتراك مع وزارة الاقتصاد والتخطيط ووزارة الخدمة المدنية ووزارة الخدمة الاجتماعية اتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ أسلوب "العمل عن بعد" كأحد المجالات الجديدة التي يمكن أن تعمل من خلالها المرأة، وتنفيذ برنامج الأسر المنتجة، وتوفير الدعم اللازم لإنجاحها".

يتضح مما سبق أن برامج التنمية الاقتصادية التي تعتمد وتستند على "التصنيع العنقودي" لها فوائد كبيرة في دعم الاقتصاد الوطني عموما، وإيجاد دخل قار للأسرة المشاركة خصوصا، وهو ما من شأنه أن يوفر فرص عمل كثيرة وقارة لأفراد الأسر الفقيرة، والنساء خصوصا، إذ تثبت الدراسات أن أكثر الأسر الفقيرة هي المعولة من قبل النساء، أي أن العائل هو الأم في ظروف غياب الأب لوفاة أو طلاق أو سجن أو عجز مرضي الخ...

<u>الدراسة وآفاق البحث:</u>

- تنظيم برامج توعية للمرأة بدورها الحيوي في المجتمع ومسؤولياتها تجاه أسرتها ووطنها.

- تبنّي الحكومات لبرامج عمل تدريبية للنساء في مجال خبراتهن وقدراتهن للانتفاع بهن في المؤسسات الصناعية ومراكز التشغيل.
- تبنّي المشروعات الصغيرة التي تعتمد على نظام التصنيع العنقودي والتي من شأنها مساعدة الأسر الفقيرة في إيجاد مسوق وموزع لما تنتجه.

وأخيرا:

إن الفقير لا يريد أن يبقى فقيرا إذا أتيحت له فرصة عمل، أيّ عمل يعول به أسرته.

وإن توفير فرص عمل للفقراء أفضل وأضمن لهم من مدّهم بالغذاء واللباس فقط.